التفسير

بقلم

عنتر أحمد حشاد

٢ – «سورة البقرة»

عرض وتفسير

– ١ –

(ا) بين يدى السورة :

سورة البقرة هى السورة الثانية من سور القرآن الكريم بعد فاتحة الكتاب بحسب ترتيب المصحف.

وسميت سورة البقرة ؛ لأنها انفردت بذكر حادثة قتل وقعت فى بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام ، وكان للبقرة – وهى الحيوان المعروف الذى اتخذه بنو إسرائيل إلهاً فى وقت مايعبدونه من دون الله – شأن إلهى عجيب فى هذه الحادثة :

وقعت الجناية ، وقُتِل القتيل ، واختلف أهل الحى – الذى لُوِّثت أرضه بدم الجناية – فى القاتل : من هو ؟ وأخذ كلٌّ يدفع الجناية عن نفسه ويتهم بها غيره ، وفيهم من يعلم عين الجانى ويكتم أمره « وإذ قتلتم نفسا فادّارأتم فيها[١] والله مُخرجٌ ما كنتم تكتمون[٢] » وترافع القوم إلى موسى عليه السلام ليحكم فى هذه الجناية التى خَفِى مرتكبها ، فأمرهم صلوات الله وسلامه عليه عن ربه جل وعلا أن يذبحوا بقرة ، وأن يضربوا القتيل ببعضها فيحيا بإذن الله ، ويخبر بقاتله ؛ ولِمَا طُبع عليه بنو إسرائيل من العنادِ فى تنفيذ

(١) إدارأتم فيها : تخاصمتم ، أو تدافعتم فى شأن هذه النفس التى قتلت ، فألقى كل منكم تهمة القتل على الآخر . (٢) مخرج ما كنتم تكتمون : مظهر ماتكتمونه ، ببيان القاتل .

الأوامر وقفوا كالساخرين الهازئين من الأمر بذبح البقرة فى هذا المقام ، حتى لقد قالوا لموسى : « أتتخذنا هزوا[1] ؟ » وما كان لنبى الله أن يسخر أو يهزأ ، ولكنها القلوب الملتوية تنصرف عن الحق وتعاند فى قبوله ، فسألوا عن البقرة ، قالوا : « ادع لنا ربك يبين لنا ماهى » « ادع لنا ربك يبين لنا مالونها » « ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا » أكثروا من السؤال ، وشددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم جزاء تنطعهم وتلكئهم فى تنفيذ الأمر ، شأنه مع كل متشدد متنطع ، وحددها لهم فى دائرة ضيقة من السن ، واللون ، والعمل : « إنها بقرة لافارض[2] ولا بكر[3] عوان[4] بين ذلك » « إنها بقرة صفراء فاقع لونها[5] تسر الناظرين » « إنها بقرة لاذلول[6] تثير الأرض[7] ولا تسقى الحرث[8] مسلمة[9] لاشية[10] فيها » وأخيرا ، وبعد حيرة ومشقة عثروا عليها « فذبحوها وما كادوا يفعلون[11] » ثم ضربوا القتيل بجزء منها ، فأحياه الله ، وأنبأهم بالمجرم الجانى « كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » .

انفردت هذه السورة بذكر تلك القصة[12] ، ومن أجلها سميت « سورة البقرة » .

---

(١) أتتخذنا هزوا : أتهزأ بنا ، وتسخر منا ؟ (٢) فارض : هرمة مسنة

(٣) بكر : فتية صغيرة لم يلحقها الفحل (٤) عوان بين ذلك : نصف بين السنين ؛ فليست مسنة ، ولا فتية ، وإنما هى وسط . (٥) فاقع لونها : شديد الصفرة

(٦) لاذلول : ليست مذللة بالعمل ، ولا متمرنة عليه . (٧) تثير الأرض : لاتثيرها ، وإثارة الأرض : حرثها وقلبها للزراعة (٨) ولاتسقى الحرث : لاتسقى الزرع ، والحرث : الزرع من نبات وشجر ، أو هو الأرض المهيأة للزراعة ، والمعنى : أن هذه البقرة التى أمروا بذبحها لاتستطيع حرث الأرض، ولاسقيها ؛ لأنها لم تدرب على العمل (٩) مسلمة: لاعيب فيها

(١٠) لاشية فيها : ليس فيها بقعة من لون آخر يخالف لونها العام وهو الصفرة .

(١١) وما كادوا يفعلون : وماقربوا من أن يذبحوها لعنادهم ، أو لغلاء ثمنها ، أو خوف الفضيحة بمعرفة الجانى ، أو لعبادتهم البقر ، وعدم ذبحه ، والامتناع عن أكله .

(١٢) اقرأ هذه القصة فى الآيات من قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » الآية ٦٧ - إلى قوله تعالى: « كذلك يحيى الله الموتى ويريكم آياته لعلكم تعقلون » الآية ٧٣ ، وإن شاء الله سأشرحها بالتفصيل فى المقالات الآتية .

وهى أطول سورة فى القرآن الكريم ، فقد استغرقت جزءين ونصف جزء من ثلاثين جزءا قسم إليها القرآن ، وآياتها ٢٨٦ : ست وثمانون ومائتا آية ؛ وهي من أوائل مانزل على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة ؛ ولنزولها بعد الهجرة تعد سورة مدنية[1] .

(ب) مقاصد السورة :

بهجرة المسلمين من مكة إلى المدينة أصبح لهم جوار فى المدينة وفيما حولها غير جوارهم فى مكة : جاوروا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بعد جوارهم للمشركين فى مكة قبل الهجرة .

وبهجرتهم - كذلك - تركزوا جماعة مستقلة لأول دخولهم المدينة ، فبنى النبى صلى الله عليه وسلم مسجده ، ليؤدى فيه مع المؤمنين الصلوات المفروضة ، وليكون بمثابة ندوة جامعة لهم ، فيها يتعلمون ، وفيها يتشاورون ، وفيها يتحاكمون ، وآخى النبى صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ، وصاروا جبهة واحدة تؤمن بالله ، وتدعو إلى الخير والفضيلة ، وتحتاج إلى تشريع تنتظم به شئونها .

وبهذين الأمرين : جوار أهل الكتاب من اليهود والنصارى للمسلمين ، وتركز المسلمين جماعة مستقلة لأول دخولهم المدينة ، واحتياجهم إلى تشريع ينظم شئونهم - نجد سورة البقرة - وهى من أوائل مانزل من القرآن بعد الهجرة - نجدها من أجمع سور القرآن اشتمالا على أصول العقيدة ، وعلى كثير من أدلة التوحيد ، ونجدها - كذلك - من أكثر السور اشتمالا على تشريع الأحكام العملية ، ونجد أنها تستهدف - فى جملتها - غرضين

---

(١) ارجع إلى ص ٥ ، ٦ من عدد المحرم ١٣٩٤ هـ من مجلة التوحيد ، لتعرف المكى والمدنى من القرآن الكريم .

أساسيين ، وتفيض فيهما ، وهما[1] :

توجيه الدعوة إلى بنى إسرائيل، ومناقشتهم فيما كانوا يثيرونه حول الرسالة المحمدية من تشكيك وشبه ، وفى سبيل ذلك أخذت تذكرهم بنعم الله على أسلافهم ، ومعونته لهم فى الشدائد والأزمات ، وبما انتاب هؤلاء الأسلاف حينما التوت عقولهم عن تلقى دعوة الحق من أنبيائهم السابقين ، وارتكبوا ما ارتكبوا من صنوف العناد والتكذيب والمخالفة ، وقد استغرق هذا الغرض نصف السورة تقريبا من قوله تعالى : « يابنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون » الآية ٤٠ — إلى قوله تعالى فى آية البر : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ... » الآية ١٧٧ .

وهذا هو الغرض الأول الذى استدعاه جوار المسلمين لأهل الكتاب .

أما الغرض الثانى فهو التشريع الذى اقتضاه تكوّن المسلمين جماعة متميزة عن غيرها ، عباداتها ، ومعاملاتها ، وعاداتها .

وقد ذكرت السورة من ذلك فى نصفها الأخير أحكام القصاص فى القتل العمد العدوان ، والوصية ، والصيام ، والدعاء ، والاعتكاف ، وحذرت من أكل أموال الناس بالباطل ، وذكرت الأهلة وانتفاع الناس بها فى توقيت عباداتهم ، وأمور دنياهم ، وذكرت القتال وسببه الذى يدعو إليه ، وغايته التى ينتهى إليها ، وذكرت الحج والعمرة ، والإنفاق ، وذكرت الخمر ، والميسر ، واليتامى ، وحكم مصاهرة المشركين بنكاح المشركات ، أو إنكاح المشركين ، وذكرت حيض النساء والتطهر منه ، والأيمان والحنث فيها ، وحافظت على طهارة الأنساب ببيان أحكام

---

(١) أرغب إلى القارىء الكريم أن يكون المصحف بين يديه ، ويقرأ السورة الكريمة ؛ ليلم بهذه الموضوعات إجمالا ، وسنعود إليها بشىء من البسط والتفصيل فى المقالات الآتية إن شاء الله .

الطلاق ، والعدة ، والخلع ، والرضاع ، وذكرت إلى جوار الإنفاق وآدابه أحكام الربا والبيع ، وطرق الاستيثاق فى الديون بالكتابة والاستشهاد والرهن .

ويبدأ هذا السياق من قوله تعالى بعد آية البر : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى » الآية ١٧٨ ، إلى « . . والله على كل شىء قدير » الآية ٢٨٤ ، ويتخلل كل ذلك - على طريقة القرآن - مايدعو المؤمنين إلى التزام هذه الأحكام ، وعدم الاعتداء فيها ، من قصص ، ووعد ، ووعيد ، وأمر بالتقوى ، وتذكير باليوم الآخر ، وإرشاد إلى سنن الله فى الكون والجماعات .

ثم تختم السورة ببيان عقيدة المؤمنين على نحو مابدأت فى بيان أوصاف المتقين : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله ، لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا ، غفرانك ربنا ، وإليك المصير » الآية ٢٨٥

وبذلك يؤكد آخر السورة أولها ، ويؤسس أولها لآخرها ، ويتلاقى البدء والختام فى تناسق وانسجام ، وتصير السورة كتلة واحدة ، ينتفع بها المسلمون الذين يهتدون بالكتاب بفرضها الأول فى معاملة من يخالطون من أهل الملل الأخرى ، وينتفعون بالفرض الآخر فى تنظيم أحوالهم : فى عباداتهم ، ومعاملاتهم .

ثم يكون الختام الأخير تعليم المؤمنين دعاء من شأنه أن يغرس فى نفوسهم سنة الله فى التشريع لهم ، وبناء أحكامه وتكاليفه على اليسر والوسع ودفع الحرج ، ومن شأنه متى أخلصوا فيه أن يأخذ بأيديهم إلى حياة سعيدة سهلة ميسرة ، وييسر لهم وسائل المغفرة والنصرة « ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ، ربنا ولاتحمل علينا إصرا (١) كما حملته على الذين من قبلنا ، ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به ، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا ، أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » .

---

(١) الإصر : الحمل الثقيل ، والمراد : التكاليف الشاقة ، وقد أشارت إلى ذلك آية ١٥٧ من سورة الأعراف .